الناحية العلمية من إعجاز القرآن

للأستاذ أحمد محمد الغمراوي

— ٣ —

بقى الجانب الثالث من جوانب الإعجاز العلمى فى القرآن . وهو أعجب الجوانب الثلاثة إلى الناس ، وأقربها أن يقنع كل ذى عقل : أن القرآن هو حقا من عند الله فاطر الكون . ذلك الجانب هو جانب التطابق بين يقينيات العلم الحديث فى ميادينه المختلفة وما يتصل بها من الآيات القرآنية .

والآيات القرآنية الكونية أقسام : منها الخاص ومنها العام ، والخاص أعجب الاثنين إلى الناس ، لكن العام إلى العلماء أعجب ، الخاص : قضايا محددة تعبر فى الظاهر عن حقيقة واحدة تقنع العوام والخواص على سواء ، أما العام : فهو وإن كان أيضا قضايا محددة إلا أنها قضايا كلية لا يقدرها قدرها إلا من يعلم أن أقصى مايطمح إليه العلم فى موضوعها هو الوصول إلى مثلها بعد استقراء طويل عريض لجزئيات كان كل منها يوما ما مجهولا حتى كشف عنه البحث العلمى الدقيق ، فالقضية الكلية الثابتة علميا هى فى العلم قانون تندرج تحته قضايا خاصة كثيرة تمثل كشوفا علمية لم تتم إلا بتعاون العلماء فى الحقبة المتطاولة من الزمان .

والقرآن الكريم فى كل من ميدانى الخاص والعام أسلوبه الحكيم الدلالة على ما يريد أن يدل عليه من أسرار الفطرة ليكون كل سر منها ، إذا أذن الله بالكشف عنه ، هاديا إلى الله فاطر الفطرة ومنزل القرآن ، ولما كان القرآن إنما نزل لهداية الناس إلى من أنزله سبحانه ، فقد اقتضت الحكمة الإلهية فى آياته الكونية أن ينزل بأسلوب لا يصدم المسلم البديهى عند الناس فيكذبوه ، ولا ينافى الحقيقة الكونية فيكون ذلك داعيا إلى تكذيبه إذ ايسر الله سبيل الكشف عن تلك الحقيقة فانكشفت لأولى العلم فى مستقبل العصور ، وهذا من أعجب عجائب القرآن التى لا تنقضى ، ومن أدل الدلائل على أن القرآن حقا من عند الله ، فإن التعبير عن الحقيقة الكونية بأسلوب يطابقها تماما أو يدل عليها أولى العلم ثم لا يصدم الناس فيما يعتقدون ولو كان ما يعتقدونه مخالفاً تلك الحقيقة

ـ هذا الأسلوب القرآنى فى التعبير عن الحقائق الكونية وفى دلالة أولى العلم عليها أمر يعجز عنها البشر ولا يقدر عليه إلا الله الذى أنزل القرآن بالحق هدى للناس .

ولعل أوضح مثل لهذه الظاهرة القرآنية العجيبة قوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها . ذلك تقدير العزيز العليم » الآية (٣٧) من سورة يس . وهى مسبوقة بقوله تعالى : « وآية لهم الليل . نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » فكلمة « الشمس » فى الآية الكريمة إما أن تكون معطوفة على « الليل » فى الآية قبلها ويكون المعنى « وآية لهم الشمس » تجرى لمستقر لها » وتكون جملة (تجرى لمستقر لها) كجملة (نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) فى الآية قبلها تبيانا لوجه آية الله فى الليل وفى الشمس ، وإما أن تكون كلمة (الشمس) مبتدأ فى جملة مستأنفة خبره (تجرى لمستقر لها) ، وفى هذه الحالة يكون كونها آية لله من حيث إنها تجرى مفهوما من السياق ويدل عليه فى الآية القرآنية نفسها قوله تعالى (ذلك تقدير العزيز العليم) . وعلى أى الوجهين أعربنا الآية الكريمة فالقضية الكونية فيها هو أن الشمس تجرى ، وقضية أخرى أنها تجرى لمستقر لها . وقد سيقت القضيتان ليكون فى كل منهما أو فى مجموعهما هاد إلى الله ودليل على أن الذى أجرى الشمس وقدر مجراها هو الإله الحق الذى لا تجب العبادة إلا له ، فضلال أى ضلال أن يعبد الإنسان سواه ! .

فانظر إلى القضية الأولى ، قضية أن الشمس تجرى . كيف انطبقت على البديهى المشاهد من حركة الشمس فى السماء من المشرق إلى المغرب فى كل مكان يعيش فيه الإنسان ، فى نصف الكرة الأرضية الشمالى وفى نصفها الجنوبى ، من قطب إلى قطب . لكن هذه الحركة إنما هى فى الظاهر . وقد فسرتها الفلسفة اليونانية أو العلم القديم بما فسرت أو فسر ، بما خطأه علم الفلك الحديث إذ أثبت أن حركة الشمس فى الظاهر حول الأرض ـ كما هو معروف ـ هى حركة نسبية راجعة فى الحقيقة إلى حركة الأرض حول محورها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق مرة فى اليوم ينشأ عنها النهار والليل ، كما أثبت للأرض حركة سنوية حول الشمس تنشأ عنها الفصول .

فهل فقدت الآية الكريمة شيئاً من دلالتها بهذا الذى أثبته العلم ؟ إن الذى جد بما أثبته العلم هو انتقال الحركة عن الشمس إلى الأرض فصار للأرض حركتان تفسران الليل والنهار واختلاف الفصول ، بدلا من حركة الشمس وحدها . والدلالة هى فى حركة الجرم العظيم حركة دائبة مقدرة تقديرا تنشأ عنه ظواهر

كونية متكررة فى اليوم وفى العام تنطق بنائها وبعظمها وبانتظام تكررها وتكرر آثارها البالغة يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، ألا بد لها من موجد قدير حكيم قدر ودبر ولايزال يرعاها بتدبيره وحكمته ، وهو الآله الحق سبحانه . ولا ينقص من هذه الدلالة شيئاً أن يصبح الجرم العظيم الذى له تلك الحركة العجيبة هو الأرض فى حكم العلم الحديث بعد أن كان هو الشمس فى رأى العين ورأى الفلسفة اليونانية أو العلم القديم .

لكن هناك سؤال آخر لايقل أهمية من السؤال السابق لأنه يتعلق بالصدق كما تعلق ذلك بالدلالة . فهل فقدت الآية الكريمة شيئا من صدقها وإن لم تفقد شيئا من دلالتها بذلك الذى أثبته العلم من التفسير الصحيح لظاهرة حركة الشمس من المشرق إلى المغرب ؟ إن الله سبحانه يقول عن كتابه (وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) فستحيل أن يكون فى القرآن شىء من الباطل قط لا فى كونياته ولا فى قصصه ولا فيا عدا ذلك مما تعرض له القرآن بعبارة أو بإشارة . بهذا تقضى هذه الآية الكريمة . والمؤمن بها الذى يحاذر أن يقفو ماليس له به علم ليس أمامه فى الإجابة على السؤال إلا الجزم بأن آيه سورة يس لا يمكن أن تفقد من صدقها شيئا بما كشف أو يكشف عنه العلم ، وليس له فى تفهمها إلاطريقان : طريق الحقيقة وطريق المجاز . والعدول عن الحقيقة إلى المجاز لابدله فى الكلام من قرينة تبرره وتدل على أن المعنى المجازى هو المراد . وليس فى الآية الكريمة ولافيا قبلهـــا أو بعدها فى موضعها من سورة يس ما يدل على أن كلمة (تجرى) فى قوله تعالى (والشمس تجرى) مستعملة فى غيرما وضعت له أو أن من الممكن صرفها إلى حركة سريعة للأرض بدلا من حركة سريعة الشمس ، من باب إطلاق المسبب على السبب . فلم يبق إلا أن تكون كلمة (تجرى) فى الآيه الكريمة على حقيقتها مسندة إلى الشمس حقيقة لامجازاً .

وهنا نتبين عجيبة من عجائب الإعجاز العلمى فى القرآن ، فقد جاء علم الفلك الحديث ، بعد نحو ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن ، فأثبت للشمس حركة غير هذه الحركة الظاهرة من المشرق إلى المغرب .

وأثبت أن هذه الحركة ذاتية للشمس ، وقدر سرعتها بركنيها : أى من حيث المقدار والاتجاه ، فأما المقدار فهو اثنا عشر ميلا فى الثانية ! وأما الاتجاه فهو نحـــو النجم المسمى « فيجا » فى الإنجليزية ، والنسر الواقع فى العربية .

أى أن علم الفلك الحـــديث أثبت أن الشمس ، على عظم كتلتها الهائلة ، تجرى

فى الفضاء بسرعة اثنى عشر ميلا فى الثانية فى اتجاه النسر الواقع .

« والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم » .

فأنت ترى الآن أن فى قوله سبحانه : « والشمس تجرى » معجزة علمية عظمى لم تكن تخطر لأحد على بال حتى كشف عنها علم الفلك الحديث ، والعلم الحديث لم يكشف عنها إلا فى القرن التاسع عشر بعد أن تهيأ له من آلات الرصد ، وأدوات التحليل الضوئى ومن المقدرة على تفسير النتائج التى توصل إليها عن طريقها ، ما أدى به إلى الكشف عن ذلك السر العظيم : كتلة من النار قدر كتلة الأرض ٣٣٣ ألف مرة تقريبا تجرى فى ملكوت الله بسرعة تزيد على ضعف سرعة ما يسمونه بالقمر الصناعى فى دورته حول الأرض ! .

لقد افتتن الناس ، أو كادوا ، بهذه الأقمار أو القميرات الصناعية التى ليس للإنسان فيها إلا صنعها وإحكام إطلاقها مستعملا فى ذلك ما وهبه الله من علم ومقدرة ، أما دورانها حول الأرض فليس له فيه من فضل إذ هى إنما تدور طوعا لسنن الله فى الحركة من ناحية وفى الجاذبية بينها وبين الأرض من ناحية أخرى ، فكيف يمكن أن يكون فى هذه القميرات دليل على وجود الإنسان وما بلغ من رقى فى الصناعة والعلم ولا يكون فى الشمس وجريها فى الفضاء على ذلك الوجه العظيم الهائل دليل على وجود الله العزيز العليم سبحانه ، الذى خلق الشمس وأجراها وقدر لها مجراها فى الفضاء ؟ .

ثم كيف لا يكون فى إخبار القرآن بجرى الشمس هذا قبل أن يؤتى الإنسان من العلم والمقدرة ما يكشفه به ، بحيث تمر القرون بعد نزول القرآن والبشرية كلها فى غفلة عن جريها وجهل به - كيف لا يكون فى هذا كله دليل قاطع وبرهان ساطع على أن القرآن إنما أنزله رب الشمس سبحانه ، الذى فطرها وأجراها وقدر لها ذلك المجرى ؟ . إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون .

فانظر الآن كيف أثبت العلم الحديث صدق ما ينتجه الإيمان بالقرآن من قوله تعالى (والشمس تجرى) إذا اتبعت الدقة فى تطبيق القاعدة البلاغية القاضية بالايعدل — فى تفهم الآيات القرآنية الكونية — عن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية فى نفس الكلام صحيح إن الاستنتاج قد وقع ونحن نعلم أن العلم قد أثبت صدق الآية حرفيا ، لكن هذا لا ينقص شيئا من العبرة التى ينبغى استخلاصها ألا وهى وجوب الاستمساك بما ينتجه التطبيق الدقيق لقواعد اللغة فى تفهم آى الذكر الحكيم فى ضوء المعروف من الحق

والمعروف من الحق فى هذه الحالة هو أن الحركة الظاهرة للشمس من المشرق إلى المغرب راجعه فى حقيقتها إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق.

ثم تأمل بالغ حكمة الله سبحانه فى أن جعل جرى الشمس حقيقة فى الفضاء يتفق خبره إذا ذكر فى القرآن مع ما علم سبحانه أن ستبدو به الشمس لعباده نتيجة لما قدره للأرض من حركة يومية حول محورها وحركة سنوية حول الشمس ، ليكون التطابق بين الخبر والجرى الظاهرى فيه عبرة وهدى الناس أثناء الحقبة المتطاولة التى علم سبحانه ان سوف تمر قبل أن يستطيع أولو العلم الكشف عن جرى الشمس الحقيقى ، حتى إذا كشفوه وحققوا بذلك صدق الخبر الكونى القرآنى حرفيا ، كان ذلك معجزة علمية كبرى فى القرآن تقنع كل ذى عقل لم يغلبه الهوى والعناد أن القرآن حقا من عند الله .

والمعجزة العلمية الكبرى المتمثلة فى قوله تعالى (والشمس تجرى) ينطوى تحتها فى الواقع معجزة أخرى ، إذ قد خطأت علم الفلك القديم حين قال فى تفسير الشروق والغروب : إن الشمس معلقة أو مركوزة فى فلك مادى كرى هو الذى يدور بالشمس حول الأرض ، لجعل حركة الشمس غير ذاتية

والآية الكريمة تقرر أن لها حركة ذاتية سريعة ؛ فإن الجرى لا يمكن إلا أن يكون ذاتيا ، وقد وجد التفسير الفلسفى أو الفلكى القديم طريقه إلى كتب التفسير ليس فقط فيما يتعلق بالشمس ولكن أيضا فيما يتعلق بالقمر وقد اعتبرهما فلاسفة اليونان خطأ من السيارات التى فسروا حركاتها عبر السماء بما فسروا به حركة الشمس ، فافترضوهما مركوزة فى أفلاك كريه شفافة مجوفة بعضها داخل بعض ومركزها جميعا الأرض فهى تدور كلها بحركات مختلفة من المشرق إلى المغرب حول الأرض التى جعلوها ساكنه لا حركة لها ، وتبعهم فى ذلك فلاسفة المسلمين والمفسرون .

وقد يكون من تكليف ما ليس فى الوسع أن ينتظر منهم استنباط جرى للشمس غير هذا الذى يرونه بأعينهم كل يوم ، لكن كان من المنتظر على الأقل أن يخطئوا الفلسفة اليونانية فى قولها : إن الشمس والقمر وبقية السيارات تجرى بالواسطة لا بالذات ، استنادا منهم إلى قوله تعالى : « والشمس تجرى » ، وقوله : « وكل فى فلك يسبحون » ، إذ لا قرينة فى الآى على أن الجرى والسبح معدول بهما عن الحقيقة إلى المجاز ؟

أحمد محمد الغمراوى